فظائع البشر

ان اكرام الخلف لذكر السلف عادة قد تقرّرت في الناس منذ عهدٍ بعيد حتى ربما توارثوها ابًا عن جدٍّ فولدوا اليوم مفطورين عليها . واذلك ترى الانسان قريبًا من تناسي مساوئ الاقدمين ماثلاً الى ذكر محاسنهم وتعظم في عينيهِ مآثر العصور الخالية وتصغر عندهُ مآثر ايامهِ ولو عظمت . فالماضيات كالبدر بهذا الاعتبار يقلُّ ضياؤهُ وتبدو خشونتهُ لمن فيهِ ويزيد اشراقهُ وتعظم صقالتهُ لمن بَعُدَ عنهُ . على ان الناظر الى الحقائق مجرّدًا عن الهوى المتدبّر مجرى الحوادث منزهًا عن الامیال يرى ان العالم صائر بجملتهِ الى الكمال وان الناس راقون في سلّم البشرية مساوئهم اقلُّ من مساوئ السلف ولو كانت كثيرة واخلاقهم اشرف والطف ولو بعدت عن حدّ الكمال. يدلنا على ذلك ان الفضائع التي كانت تعمُّ الناس قديمًا قد زالت او كادت تزول اليوم وان العواطف الشريفة التي تفرّد بها الفلائل قديمًا قد عمّت او كادت تعمُّ . وشاهدنا على صدق هذا القول امران : ما سطرهُ لنا السلف مما بُني عليهِ علم التاريخ وما اتّصل بنا من بقاياهم وآثارهم محفوظًا في خبايا الارض مما بني عليهِ علم العاديّات والآثار . فان مَنْ يتصفح هذين العلمين يجد فيهما الادلّة القاطعة على صدق قولنا . ولتسهيل المراجعة على القارئ نلخّص لهُ هذه الادلة مقتطفين معظمها من مقالة للماركيز دو نادَلياك نُشرت في احدى الجرائد الفرنسوية الشهيرة

اشدُّ الفظائع التي يرتكبها البشر الفبائح التي تدل على ان الشفقة معدومة منهم والعواطف الشريفة ميتة فيهم حتى تحلّقوا باخلاق الضواري مع الاستطاعة على ممارسة الفضائل والترقي في معارج الكمال . ولا جرم ان افظع الفظائع تعذيب القوي للضعيف ثم قتلهُ واكلهُ . فالمتمدنون يقرّون احيانًا ان هذه الافعال لا ينطبا في زمانهم الّا اعرق الناس وحشيةً وابعدهم عن الانسانية ومع ذلك فالظاهر ان القدماء كانوا كلهم يقتلون ويأكلون بعضهم بعضًا. لان كل الذين بحثوا عن احوال الامم ونقبوا عن آثارهم واطلالهم في البلدان المتمدنة والمتوحشة والاراضي الخصبة والجدبة وبين الشعوب المغنية والفقيرة عادوا وهم يقصُّون قصة واحدة فحواها اكلُ اجدادنا الاقدمين بعضهم لبعضٍ وتناخرهم بتقديم احدهم الآخر محرقةً وقربانًا

هذه اوربا الرائعة اليوم في رياض التمدن المستهجنة فظائع المتوحشين في زمانها حتى كادت تجعل نفسها نوعًا مستقلاً عن نوعهم قد كان سكانها الاقدمون اوغل منهم في الوحشية واوطأ في سلّم البشرية. فقد اثبت رجالها العالمون بالعاديّات ان اجدادهم الاقدمين الذين ساكنوا السباع والضواري في اوجارها وطاردوا الفيل والدب ووحيد القرن بسهام من الصوان وسلاح من الظران

كانوا يسطون بعضهم على بعض كالذئاب ويأكل احدهم الآخر كالوحوش الضارية . فاذا حاولنا ان نلطّف من فظاعة اعمالهم بدعوى ان ضرورة حفظ الحياة عند نفاد الزاد حملتهم على ارتكاب تلك المنكرات وان احسن متمدني هذا الزمان لم يسلموا من مثل هذه الفعال في نفس الاحوال فكيف نلطّف من فظاعة الذين عاشوا بعدهم وكانوا يفعلون افعالهم مع اتساع الرزق عليهم ومعرفتهم لحرث الارض وزرعها وغرسها ودجن الوحش والطير وتربية المواشي والانعام . لا ريب انهم كانوا يأكلون البشر انسياقاً طوعاً على ذوقهم وخشونة عرضت على اخلاقهم اولاقتباسهم هذه العادة الوخيمة عن آبائهم . وايّاً كان سببها فوجودها فيهم دليل كافٍ على سفالة اخلاقهم وشدة انحطاطهم

اما الدلائل على ان اقدمي الافرنج كانوا يأكلون بعضهم بعضاً فمعظمها مأخوذ من علم الآثار والعاديّات لان التواريخ المكتتبة لم تكن في زمانهم . فقد وجد الناقبون في اطلال الاوّلين وبين ما تبقّى من فضلات طعامهم عظاماً كثيرة من عظام البشر متفرقة بين عظام الحيوانات التي كانوا يأكلونها . فكان في ذلك مظنّة بانهم يأكلون لحوم البشر . ثم وجدوا بعد امعان النظر ان العظام البشرية الطويلة مشقّقة تشقيق عظام الحيوانات ومكسّرة عمدًا وآثار الادوات التي كُسّرت بها باقية عليها . فلم يعد ثمّ ريب في ان الاقدمين كانوا يأكلون لحم البشر ثم يكسرون عظامهم الطويلة لاستخراج مخها منها كما كانوا يفعلون بعظام الحيوانات

وعلى ما تقدّم اثبتوا ان سكان ايطاليا الأوّل كانوا يأكلون البشر طبقًا لما رواهُ المؤرخون الرومانيون ما كانت تداولة الالسنة وهو ان سكان ايطاليا الاولين كانوا من اكلة البشر . قال بليني المؤرخ المشهور ان قدماء صقلية وايطاليا كانوا يأكلون الناس . وكذلك ثبت ان سكان فرنسا الاولين كانوا يأكلون بعضهم بعضاً فقد وجدوا في اماكن شتى منها جماجم بشرية مكسّرة تكسّر جماجم الحيوانات الاخرى المطمورة معها . ووجدوا على افكاك البشر آثار السكاكين الحجرية باقية من تجريد اللحم عن العظم بل كانت آثار اسنان البشر منطبعة عليها . ووجدوا ايضاً موقدة قربها عظام بشرية وغير بشرية مكسرة تكسيرًا متشابهًا وعلامات آلات القطع وغيرها من دلائل الاكل واضحة عليها غاية الوضوح فلم يبقَ بعدها ريب في ان البشر اكلوا ما عليها من اللحم ثم كسّروها لاستخراج مخها وعظامها . وقد ثبت ايضاً ان قدماء الانكليز كانوا يأكلون البشر من العظام البشرية التي وجدوا آثار اسنان الناس واضحة عليها . وكان الانكليز يقدّمون الذبائح البشرية في عبادتهم منذ عهدٍ بعيد واذا مات كبيرٌ فيهم قتلوا خدمهُ وحشمهُ اكرامًا له ثم دفنوهُ واكلوهم اجمعين . وعلى هذا النحو ثبت ان اهل برتوكال الاقدمين واهل سائر ممالك اوربا كانوا من اكلة البشر

وزد على هذه الدلائل ما يؤخذ من خرافات شعوب اوربا ومن التواريخ التي سطرها المتقدمون عن اسلافهم. فقد ورد في كثير من خرافات اليونان اخبار أناس ذبحوا اولادهم وأكلوهم او رجال حاربوا آخرين فاسروهم ثم أكلوهم الى غير ذلك مما كان له اصلٌ ثم تصرّفت فيهِ اقوال الانسال حتى ضاع اصلهُ وعدّ خرافةً. وفي تواريخ المتقدمين شواهد كثيرة على ان اليونانيين والتلتيين والالبانيين كانوا يقرّبون البشر قرابين إمّا صلبًا او قتلًا او حرقًا ولا تخفى علاقة ذلك بأكل الناس بعضهم بعضًا. وذكر هيرودوتس ان قبائل من الصقالبة كانت اذا اسنّ الناس فيها وقاربوا الموت يأتي اقاربهم باحسن مواشيهم واسمنها ويذبحونها ويقطّعونها قطعًا ثم يقتلون المسنّين منهم ويقطعونهم ويخلطون قطعهم بقطعها ويولمون وليمةً عظيمةً عليها كلّها. واما شعر رؤوسهم وحواجبهم فيغتنونهُ ويقرّبونهُ لآلهتهم مع قرابينهم السنوية وكانت هذه القبائل تفعل ذلك بهم اكرامًا لهم على ما زعموا

وقال ارسطو ان الذين كانوا يسكنون على سواحل البحر الاسود كانوا يأكلون البشر. وقال ديودوروس الصقلي كذلك عن اهل غلاطية وقال قيصر وبورفيروس ان كل متوحشي زمانهما كانوا يذبحون الذبائح البشرية. وقال سترابو ان اهل ارلاندا كانوا يفتخرون بأكل والديهم عند موتهم ولا عجب. فقد روى مارجيروم في القرن الرابع بعد المسيح ان قبيلة الاتاكوت في فرنسا كانت تاكل لحوم البشر في زمانهِ مع كثرة مواشيها وخصب اراضيها. بل روى المؤرّخون ان حاشية الامبراطور الروماني كومود كانوا يتنقّلون بالاجزاء الرخصة من لحوم الرجال والنساء بعد الطعام وكانت رومية يومئذٍ في سماء بهجتها وزهوتها ولعلّ ذلك بموجب سنّة الرجوع الى الاصل. فعود اشراف رومية الى فظائع اسلافهم لا يُعلَّل تعليلًا طبيعيًا على ما نرى الّا بان امیال اجدادهم عادت فظهرت فيهم. والظاهر ان فرنسا لم تخلُ من قبائل تاكل البشر الى زمان الملك شارلمان ولذلك اصدر امرًا ينهى فيهِ عن السحر وأكل البشر تحت طائلة العقاب الشديد. وكان السحر يومئذٍ بابًا لتقديم الذبائح البشرية وأكل لحومها فلزم ابطالهُ لابطال تلك العادة الوخيمة معهُ. اذ كانوا يزعمون كما يزعم اولادهم اليوم في بيروت ان للسحرة علاقة بالارواح الجهنمية فيتذرعون الى مرضاتها بالمنكرات الفظيعة املًا بدفع شرّها عنهم. ومن غريب الشواهد على ظهور اميال الآباء في الابناء ان اولادهم الذين ساقتهم عصا الدهر الى بيروت يعلّمون الناس ان السحر واسطة بين الناس والاباليسة ثم يكلّفونهم تقديم مالهم وتضحية عقولهم على مذابح الجهالة ليدفعوا عنهم شر الارواح النجسة مقابلةً لذلك. ان تضحية العقول لأفظع من تضحية الابدان. على ان وجود هذه الفظائع اليوم لا يقدح في صحة ما قلناهُ من ان العالم صائرٌ بجملتهِ نحو الكمال فان مرتكبيها

نادرون وعصبتهم في انحلال والنادر لا يبنى عليه حكم كلي كما هو جلي

فهذا ما يقال في اهل الغرب الاقدمين فاسمع ما يقال في اهل الشرق الذين سبقوهم الى الحضارة واوصلوا اليهم انوار التمدن ثم تقاعدوا عن السعي ورضوا بالتراخي فدارت بهم دولاب الدهر ورفع غيرهم عليهم . ان دلائل التوحش على قدماء الشرق اخفى منها على قدماء الغرب وسبب ذلك انما هو قلة الباحثين في الشرق عن احوال اسلافهم وكثرتهم في الغرب. فانهُ لما شرع الافرنج في التنقيب عن بقايا الاقدمين في الشرق وجدوا في بلاد يابان عظامًا بشرية مع عظام الابائل مكسرة ومشققة لاستخراج مخها على ما قدَّمنا عن قدماء الغرب الذين عاشوا في زمانهم. فكان اهل يابان اذًا ياكلون البشر كاهل اوربا ويستدل من خرافاتهم الكثيرة المتداولة على السنتهم الى اليوم انهم كانوا يقدِّمون البشر ذبائح لآلهتهم ثم ياكلونهم واستمرُّوا على ذلك اعوامًا طوالاً حتى غلبت عليهم العواطف البشرية فصاروا يستبدلون البشر باشخاص من الخشب او التراب المشويّ

وقد وجدوا في اطلال القدماء في جنوبي مالابار بالهند اطباقًا واسعة كانوا يذبحون العذارى ويقدِّمون اجسادهنَّ عليها اكرامًا للآلهة . وكانوا يذبحون كل سنة لالاهتهم تالي صبية حبلى باوَّل ولدٍ ثم يرشُّون مذبحها بدمها ويدحرجون رأسها تحت قدميها. وكان الهنود يذبحون لآلهتهم كل سنة مئة وخمسة وثمانين ذبيحة من البشر. وكان ملوك الهند يئدون البنات (اي يدفنونهنَّ وهنَّ في قيد الحياة) على نحوم ما لكم زعمًا ان ذلك يدفع الاعداء عنهم ولم يبطلوا هذه العادة الوخيمة حتى دخل الانكليز بلادهم فاكرهوهم على ابطالها. ووأد البنات عند جاهلية العرب مشهور وكانوا يفعلون ذلك سني الجدب لقلة الطعام ولعلهم كانوا يعتقدون ايضًا ان وأدهنَّ يزيل الجدب عنهم كاعتقاد الهنود ان وأدهنَّ على التحوم يدفع الاعداء

وقال برتن الانكليزي انهُ رأى في بيت صحور بقرب القدس آثارًا تدلُّ على ان القدماء كانوا ياكلون بعضهم بعضًا في تلك الجهات . فاذا صحَّ ذلك فقد كان قبل دخول بني اسرائيل الى هنالك لانهم كانوا يحرمون الذبائح البشرية. واما ما ورد في التوراة عن تقديم يفتاح ابنتهُ محرقةً فمختلفٌ في تفسيره كما لا يخفى

والفرس الاقدمون كانوا يذبحون البشر لالهم مِثْرا ثم يلبس كهنتهم جلود المذبوحين حتى تعتريها العفونة وتتساقط من البلى . وبنو عمون في فلسطين كانوا يحرقون اولادهم لالهم مولوك . وروى مَنِيثو المؤرِّخ ان اهل بعلبكّ كانوا يذبحون كل يوم ثلاثة عبيد تقدمةً لآلهتهم . وكان الحبش في زمان بليني يذبحون البشر في عبادتهم والظاهر ان المصريين كانوا ياكلون بعضهم بعضًا حتى في ايام تمدنهم اذا صدق جوفنال فيما قالهُ عن معركةٍ بين اهل مدينتي قُبطس وتنتيرا

وهو ان رجلاً من اهل قبطس غلب عليه المرعب فوقع على الارض فحمل عليه اهل قبيرا ومزقوه اربًا اربًا ثم تناسروا كل واحد بعظم بلا سلق ولا شيء

وابلغ من ذلك ان كثيرين من القدماء كانوا يأكلون الناس ثم يتزينون بعظامهم فان الذين كانت كل اسلحتهم وادواتهم من الحجر ويسمون باهل العصر الحجري كانوا ينظمون اسنان الناس في قلائد ويلبسونها على اعناقهم وقد وجد المتأخرون قلائد كثيرة منها حول اعناق هياكل الموتى الذين عثروا عليهم في مدافنهم . ومنهم من كان يتخذ الجماجم كؤوسًا يشرب بها كما وجدوا بين آثارهم ولا يزال في كثير من اقوالنا السائرة وخرافاتنا اشارة واضحة الى ذلك . ومنهم من صنع العظام مفبض صرلجان وآخرون ثقبوها ثقوبًا متناسقة ليخفوا عليها كالمزمار وآخرون اتخذوها مثاقب او سهامًا او مصاقل . وكانوا يقطعون من جماجم الاحياء قطعًا مستديرة فاذا شفي الرجل بعد ذلك رفعوهُ الى مقام الولاية والقداسة . ويقطعون مثلها من جماجم الاموات ويتخذونها عوذًا يعوذون بها من الأذى والرقى . كل ذلك وهم يعتقدون بالخلود وبعالم آخر وراء الموت ولذلك يبدلون القطعة التي يتخذونها من جمجمة الميت بقطعة أخرى من جمجمة غيره حتى لا يكون مشوه الرأس في عالم الخلود

هذا ولو ان المتقدمين اقتصروا على قتل الناس واكلهم دون تعذيبهم لكانت فظاعة اعمالهم لا تزيد عن اعمال الضواري ولكن لما كان اكثرهم ياكل الناس اتمامًا لفروض وشعائر وقيامًا بوصايا وتقاليد لا سدًا للرمق وحفظًا للحياة كانوا يجرون اعمالهم لا بدَّ على غاية الفظاعة والقسوة. ويدلنا على ذلك افعال الموحشين الذين حذوا حذوهم الى عهد قريب والذين يحذون حذوهم الى هذا العهد . فالاولون كاهل المكسيك والبرازيل ايام دخول الاسبانيين والبرتوكاليين الى اميركا والآخرون كبعض القبائل المتوحشة في افريقية واستراليا واميركا وجميعهم افعالهم معروفة وبالقياس عليها تُعرف افعال الاقدمين لصدورها كلها عن بواعث واحدة سيأتي الكلام عليها في مقالة تتبعها بهذه المقالة بعد ان نصف فظائع المتوحشين في هذه الازمان في الجزء الثاني ان شاء الله

ورق الالومينيوم

جاء في الجريدة العلمية الفرنسوية ان الموسيو ليفيڤر عازم على ابدال ورق التصدير بورق الالومنيوم لتبطين القناني الليدنية ونحوها من الامتعة التي تبطَّن بورق التصدير للتجارب الكهربائية وذلك لان ورق الالومينيوم اشد من ورق التصدير لمعانًا واثبت منه صقالاً ولا يزيد عنه نفقةً